الذهب الوهاج في البادية

الجهاد في رأي العرب كالوطنية في رأي الاوربيين

في الرحلة الثالثة[1] (١٩١٤—١٩١٥) يوم جاء الاستاذ موزيل (الشيخ موسى) دمشق كان الامير نوري الشعلان مستقلاً في الضمير فتوسط لدى الحكومة من اجله فأطلقت الحكومة سراح النوري بعد ان تناهت رياؤه في ما يتعلق بمحاربة الانكليز. وعدها الامير وعداً كان الشوق الى البادية، بل الى الفوج، اكبر ما فيه. وأسرع بعد ذلك في الرحيل دون ان ينتظر صديقه ومنقذه الشيخ موسى

ثم سافر الشيخ موسى وهو ينشد شيخ مشايخ الرواله. راح يفتش عنه في البادية وظل يطوّف عشرين يوماً قبل ان ظفر به في مخيّمه بخبيرة الهجيم جنوبي اللاهه في قلب الصحراء. وقد كان اوفر حظًّا في هذه الرحلة منه في الرحلة الاولى. كيف لا وهو الآن مندوب او شبه مندوب للدول الوسطى في الحرب العظمى؟ كيف لا وقافلته هي ضعفا ما كانت في السفرة الاولى وفي احمالها الهدايا لمشايخ البدو. رحلة علمية خيرها جزيل لا يرافقها غير الشقاء. ورحلة سياسية لا خير فيها لاحد ترافقها النجلة والكرامة. هي الحياة حتى في البادية!

وما كان اجمل استقباله في مخيم النوري بخبيرة الهجيم. جلس اخو العرب الشيخ موسى الفلاخي (Czech) الى يمين الامير وكان في سلامه، وفي شوقه، وفي سؤالاته واحداً من العرب، بل واحداً من بيت الشعلان وقد حزن حزن واحد منهم عندما سأل عن بعض اصدقائه الغائبين وسمع الجواب — «ومدوح بن سطام، وعذوب بن مجبوّل وسعود (ابن الامير نوري) اين هم؟» فاجاب الامير بكلمة واحدة: «راحوا»

ثم اخبر اخاه الشيخ موسى كيف قُتل عذوب في الغزو. «عادت فرسه وحدها ملطخة بالدم». وكيف قُتل ممدوح في غزوة لبعض عربان شمّر. «غزاهم في النفود فغنم جمالهم وغرّب هارباً ورجاله. تكمن لهم العدو ووقع ممدوح بيد الشامرة في شعيب الساه. جانا بخبره من نجوا و«حينا» بتلّ العمود»

وابنه سعود؟ ذهب فريسة الغدر. — «قتله كلاب ابن حاذي عند ملتقى وادي النعم بوادي سرحان شمالي قرافر. جاؤوه غادرين يقولون انهم بأمرة عوده

(١) راجع مقالة «البادية العربية» في الجزء الماضي

ابي تايه . وعريان ابن حاذي يعسون مثل عريان عوده . صدقهم سعود وأنزلهم عليه ، فغدروا به . « ثوّروا » البنادق على سعود ورجاله فقتلوه وقتلوا اربعة معه ، وشردوا ولكن الباقين من رجاله لحقوا بهم فادركوهم صباح اليوم الثاني ، وساقوهم الى المكان الذي سال فيه دم سعود ، فذبحوهم ورؤوسهم الى القبلة ذبح الغنم »

هي حياة البدو على الدوام . وقد جاء الشيخ موسى من « دير الفلاح » باوروبة ينصحهم بان « يثوّروا » بنادقهم على الانكليز بدل ان « يثوروها » بعضهم على بعض. جاء يوفق بين القبائل المتعادية ويستنهضهم الى مناصرة الدولة العلية وحليفتها المانيا والنمسا

وكان الامير نوري قد خرج من دمشق والحكومة تظن انهُ سيسعى والشيخ موسى لانجاح المشروع . ولكن الحكومات لا ترجم بالغيب وقلما ينتج البدو قلوبهم في غير البادية

قال الامير يخاطب الشيخ موسى في جلستها الاولى السياسية : « انت يا اخي تعلم ما بقلبي ، انت تعلم اني لا اثق بالحكومة ، ولا الحكومة تثق بي . لولاك كنت اليوم لا ازال اسيراً في الغوطة . . . وهذه الحكومة تطلب مني اليوم ان اساعدها في محاربة الانكليز . تطلب من النوري الذي حاولت ان تشنقهُ منذ اربع سنوات — النوري الذي قضى سنتين بسجنها — النوري الذي خلصتهُ انت يا شيخ موسى من المشنقة . تطلب مني هذه الحكومة المسونة الوالدين ان استنفر العربان لمحاربة الانكليز . . . . وهذه الحكومة تضرنا اذا ارادت وتضر اهلنا وعشايرنا . يلزمنا ثياب ، ويلزمنا قمح ، ويلزمنا شعير لخيلنا . وهذه لا نجدها اليوم في غير الشام . واهل الشام لا يبيعوننا اذا عادينا الحكومة . اهل الشام يكرهون الحكومة مثلنا ويناصرونها علينا . فهل تلومني اذا وعدت الحكومة بالمساعدة ؟ الحكومة الملعونة الوالدين سأعطيها الوعود . . . . ولكني ادفع الميرة والله ، واساعد الحكومة بمالي . اطعمها الذهب . الذهب ! سامي باشا (الشير يومئذٍ) أكّل ارطالاً من ذهبي . وعند ما لجأتُ اليهِ حكم عليَّ بالشنق . . . الحكومة الحاضرة لا تبغي المال — بل تبغي الرجال للحرب ، وتقول لي انها تساعدني بعد الحرب على ابن الرشيد والله اعلم اذا كانت تكذب او تصدق في قولها »

فقطع نواف عليه الحديث قائلاً : « هي تكذب يا ابي . وكيف تساعدنا وانور باشا يرسل الى ابن الرشيد السلاح والذخيرة والمال ؟ في اول هذا العام ارسل اليهِ في سكة الحديد الى الهجر خمس عشرة الف « موزر » واربعمائة الف خرطوشة ، ومدافع كثيرة ، وصناديق من الذهب تسلمها ابن السبهان ونقلها الى حائل . . . وهذا الانور

هو الذي صالح ابن سعود واعطاهُ الياشين . ثم اعطى ابن الرشيد السلاح وامّل ليحاربهُ . . ولولا هذا الانور لما تمكن ابن الرشيد عهد انصلح بينهُ وبيننا وبينهُ وبين ابن سعود . . . ترى اني ادفع الى الحكومة اربعة آلاف ليرة كل سنة وبشتري بالمقابل ما يلزمهُ من السلاح والذخيرة ليحمي عشائرهُ ، وليحمي رعايا الدولة في القرى المجاورة للبادية . اما ابن الرشيد فالحكومة تعطيه كل شهر مائتين وثلاثين ليرة عثمانية ، وتعطيه ما يقيهِ من السلاح والذخيرة ، فتقويه علينا ، فيسلب « طروشنا » ويقتل رجالنا »

النوري : وما العمل يا ابن نواف . هل يمكنك ان تحارب ابن الرشيد ؟ واين سلاحنا من سلاحهِ ؟ اربعة آلاف بندق (بندقيـة) على خمس عشرة الف مرزر . وخرطوشنا ما ينفع . لا يالولـيد . خير لنا ان نطيع الحكومة وننتظر — ننتظر الى ان تنتهي الحرب والحكومة تبغي السلم بين العشائر ونحن ارزله (تُلفظ ارْوَلَه) تبغي السلم — نحتاج الى السلم » فقال الشيخ موسى

« الحق مع والدك يا نواف . اتحدوا فيخافكم ابن الرشيد ، وتخافكم الدولة . وانا الكفيل ان عشائر الفدعان يصالحونكم . ويجب ان تصالحوا كذلك ابن الرشيد »

وكان عوده ابو تايه حاضراً فافصح عما في صدره بصراحة عربية لا صراحة بعدها . « وهل تظن الحكومة اننا لا نفهمها ؟ تقول لنا : السلم . وهي تبغينا للحرب. هي لا تثق بنصارى سورية ولا تثق بدروز حوران . ويلزمها جمال لتمشي الى مصر . وهي تعرف ان القبائل ما زالت متعادية فكل قبيلة تعتذر وتحيلها على عدوها . اقول انا ابو تايه للدولة : دونك رعبطان [1] ويقول لها النوري : دونك والفدعان . ويقول لها نواف : دونك وابن الرشيد . وهم يقولون لها قولنا ويحيلونها علينا . النتيجة ؟ كلنا نظل في خيامنا . . . اي بالله يلزمنا السلم . يلزمنا السلم لمصلحتنا لا لمصلحة الدولة . اكتب ياشيخ موسى الى الحكومة وقل لها اننا نمشي معها بشرط ان تردع اعداءنا وهم في الظاهر اصحابها »

الشيخ موسى : « وهل تمشي انت ورجالك يا عوده مع الجيش الى مصر ؟ »

عوده : « لا اخرج من البادية ما زال فيها خصومات . اما اذا صالحت عبطان وابن الرشيد ، واعطتني الحكومة السلاح والذهب ، — يلزمني ذهب وسلاح — امشي والله . امشي الى مصر » . وكان في مخيم الامير بعض مشائخ الامارات فقال احدهم مجيباً على

(١) عبطان بن حازي شيخ الحويطات الذي كانت بينهُ معادية لحويطات عوده ابي تايه

كلمة للاستاذ موزيل في الجهاد. — «الجهاد يا شيخ موسى هو ان نحمي خيامنا وطروشنا»

وفي لغة المتمدنين الجهاد هو الحرب في سبيل الوطنية ، فيقول الانكليزي مثلاً : الجهاد هو ان نحمي بريطانيا العظمى ومستعمراتها . لافرق اذن بين عقلية البدوي وعقلية الانكليزي . فلماذا يكرم هذا في جهاده ، ويتهم ذاك بالوحشية ؟

— « واعلم يا شيخ موسى » — الكلام لشيخ آخر من مشايخ العمارات — « اننا لا نكره الانكليز ولا نحبهم . اما اذا اقتربوا منا وحاولوا التعدي علينا فالويل لهم . . . هم الآن يحاربون الدولة فلتحاربهم الدولة بجيشها » . — « يقولون ان الانكليز دواهي يأخذون املاك الناس ويسلبون حريتهم . والله يا شيخ موسى اذا جئنا ما يأخذون غير مالنا . اما حريتنا فلا يأخذها منا غير الله . . . ولكنهم الآن يعيدون عنا فلامهم اعداؤنا ولامم اصحابنا . و« ويش » يصير غداً — الله اعلم »

التوري : « كلامك صحيح . ولكن يجب ان نطيع الحكومة . الله ينصر الدولة »

ثم قال للشيخ موسى وهو عائد واياهُ الى الخيمة : « لا بد من الكلام السياسي ، فلا يسوّد احدٌ وجهي مع الحكومة »

وظل التوري يتقلب ويتلون الى ان ظهر في الحجاز ، بعد سنة ، الكرنل لورنس ، فغلب الخيّال الانكليزي النمر الالماني . اجل ، قد ظفر لورنس بما لم يظفر به الاستاذ موزيل فجمع شمل العربان وضمهم تحت لواء الشريف — ولواء الاحلاف — وكان الفضل الاكبر في فوزهم للذهب الانكليزي . ومن المعلوم ان الليرة الانكليزية تزيد الليرة العثمانية عشرين غرشاً . ومن المعلوم — اليوم — ان عقلية الاحلاف هي مثل عقلية شيخ العمارات الذي قال : « الجهاد (الحرب) هو الدفاع عن خيامنا وطروشنا »

فهل يلام العرب اذا هم فضلوا لورنس والشريف على موسى والجمال ؟ وهل يلامون في ما تقاضوهُ للدفاع عن الانكليز والفرنسيس ، ونحن نرى اليوم انقلاب الآية ؟

قد كشفت لنا الايام . بعد تسع سنين من الهدنة ، عن بواطن الاحلاف ونياتهم ، فصرنا نعذر العرب الذين فضلوا الليرة الانكليزية على الليرة العثمانية — الذين باعوا الدولة بل الدول الوسطى بعشرين من الفضة . بل صرنا نأسف لان الدول الوسطى انسحبت يومذاك من المزايدة . فلو ثبت الاستاذ موزيل وكان سخيّاً ، او بالحري لو كان موكلوه أسخياء ، لانقلبتْ الآية ، ولَباع العربُ لورنس والشريف ، ودول الاحلاف جمعاء بعشرة لا بعشرين من الفضة

امين الريحاني